« لقد جاء الرجل الابيض حاملا الانجيل وكنا نحن نملك الارض ، فاصبح يملك الارض ونحن نملك الانجيل » . هذا واحد من الاقوال المأثورة الافريقية ، الذي يعبر عن مرارة النقمة في صدر الانسان الافريقي ، الذي خضع لحقب طويلة من الزمن لظلمة الاستعمار الاوروبي الذي ما بدأ يتبدد الا من بعد الحرب العالمية الثانية ، بصورة خاصة من بعد هزيمة الاستعمار البريطاني في مصر ، من بعد فشل هذا الاستعمار نهائيا في محاولة العودة المتمثلة بالعدوان الثلاثي على مصر في سنة ١٩٥٦ ، ومن بعد انتصار الثورة الجزائرية وخروج الاستعمار الفرنسي المهزوم منها. ولكن هذا القول ما يزال ينطبق الى اليوم على الجزء الجنوبي من القارة الافريقية ، حيث ما يزال الرجل الابيض يملك الارض بينما الشعب الافريقي المسحوق يملك الانجيل . ولكن الانجيل لم يعد يمثل الخنوع لارادة القدر والامل بالآخرة ، بل يمثل الامل والقناعة بالقدرة على الانعتاق والتحرر ، والارادة المصممة التي تتمثل في طلائع الشعب الافريقي المكافحة ضد الاستعمار الاستيطاني العنصري الابيض ، في افريقيا الجنوبية .

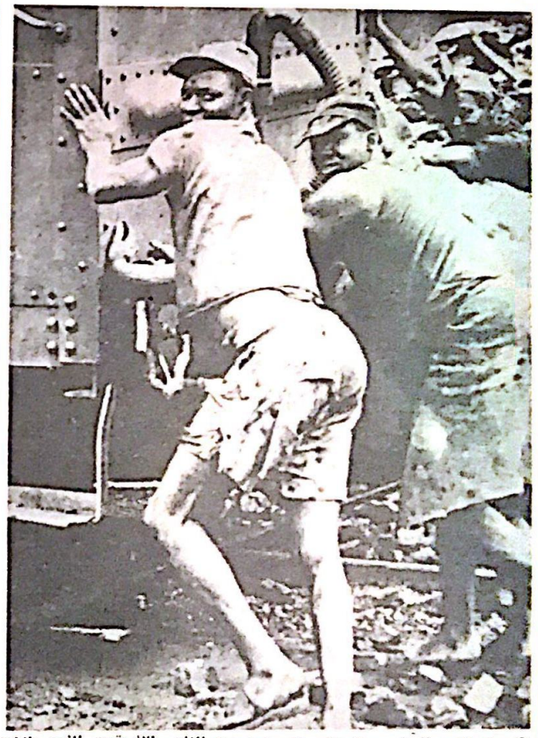

● برغم القمع البوليسي الوحشي تنمو قوى عمال المناجم الافريقيين الذين ينزلون الى اعماق الارض يستخرجون ثروات ارضهم المعدنية ، حقهم الشرعي، ليستغلها المستعمر الاوروبي مقابل اجور بالكاد تكفي تجنيب العامل وعائلته خطر المجاعة .

فالكفاح المسلح الذي تخوضه هذه الطلائع الافريقية في افريقيا الجنوبية ضد السيطرة العنصرية البيضاء هو بالضرورة نضال ضد الاستعمار الاوروبي في جنوب افريقيا وروديسيا الان ، من بعد انهيار الاستعمار البرتغالي في كل من انغولا وموزامبيق وغينيا ـ بيساو اخيرا . فالعنصرية هي صفة ملازمة للاستعمار والتمييز العنصري الذي تمارسه الاقليات البيضاء الحاكمة فيها هو النظام الوحيد الذي يستطيع بواسطته هذا الاستعمار الاستيطاني الابيض المحافظة على بقائه واستمراره خاصة من بعد احتدام الصراع بين المصالح الافريقية الوطنية والمصالح الاوروبية الاستعمارية خلال العشر سنوات الاخيرة .

إلا حمل الرجل الابيض بذور نظام التمييز العنصري ، منذ ان اقتحم الارض الافريقية البكر . وقد طوره وعززه طبقا لمستلزمات الظروف التي كان يواجهها في التصدي الدائم للمشاكل والمسائل التي تؤثر على سيطرته وبالتالي على مصالحه الاستعمارية هناك . فقد كان عليه ان يهدم حضارة ويحطم اسس مجتمعات قائمة كشرط اساسي مسبق لبناء العمود الفقري لازدهار مجتمع المستوطنين البيض ، المستعمرين ، الذي هو امتداد للمجتمع الرأسمالي الاحتكاري .

التمييز العنصري نظام لائم لنجاح وازدهار المشروع الاستعماري

من الغزوة الاولى :

لقد تركز اهتمام المصالح الاستعمارية الاوروبية في افريقيا الجنوبية ، في البدء ، على الطرق التجارية الى الهند والشرق وعلى تجارة الرقيق الابيض . وقد انشأت البرتغال وهولندة وبريطانيا استعمارها هناك الواحدة تلو الاخرى، بهدف السيطرة على الطرق البحرية الى الشرق .

ولكن اكتشاف الماس والذهب وغيرها من الثروات المعدنية في باطن الارض الافريقية الخصبة ، وفي مناخها المعتدل ، كلها اجتمعت لتشكل الحافز الذي لا يقاوم لهذه القوى الاستعمارية القديمة ، الامر الذي ادى الى نشوء موجة عارمة للاستيطان الابيض في افريقيا الجنوبية ، والذي نما وتطور الى استعمار استيطاني عنصري ما يزال قائما الى اليوم ، ولكن ليس على طمأنينة الماضي و « استقراره » بالتأكيد .

ومن الضروري التأكيد بان ثراء الارض وخصوبتها ومناخها المعتدل ما كانت هي وحدها اسباب ظهور عملية استيطان الاوروبي الابيض هناك . بل كانت عوامل مشجعة وملائمة لتفادي تفاقم الازمات الدورية التي تخض قارب الاقتصاد الرأسمالي في اوروبا . فازمات النظام الرأسمالي الدورية كانت تخلف وراءها الفقر والحاجة ، وكانت بريطانيا عشية مغامرة الاستعماري العريق سيسيل رودس (الاوروبي الذي اثرى ثراء فاحشا من افريقيا الجنوبية) مهددة بصراعات اهلية نتيجة ازماتها الاقتصادية . وقد وجد رودس في مشاكل بريطانيا هذه فرصة للمغامرة الاستعمارية ، اذ تمكن من تجنيد عدة آلاف من الانكليز الذين يبحثون عن طريق خارج دائرة الفقر ، بامل الثراء بواسطة غزو افريقيا .

ويمكن ان نفهم هذه العلاقة في ما اعلنه رودس ببساطة ، في سنة ١٨٩٥، اثر تنظيمه لغزو زيمبابوي (روديسيا) واستشهد به لينين في مؤلفه « الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية » ، عندما قال :

« كنت في الطرف الشرقي من لندن بالامس ، وحضرت اجتماعا للعاطلين عن العمل . لقد استمعت الى الخطب العنيفة التي لم تكن سوى صرخة تطالب بـ « الخبز ، الخبز والخبز » . وفي طريق عودتي الى البيت رحت افكر عميقا بالمشهد ، واصبحت مقتنعا اكثر من اي وقت مضى باهمية الامبريالية . والفكرة التي

تراودني دائما هي حل المشكلة الاجتماعية ـ اي علينا نحن رجال الدولة الكولونياليون حتى ننقذ ٤٠ مليون من سكان المملكة المتحدة من حرب اهلية دموية ، ان نحصل على اراضي جديدة لتوطين فائض السكان ، وتأمين الاسواق الجديدة للسلع التي ينتجونها في المعامل وفي المناجم . (...) فاذا اردت ان تتجنب الحرب الاهلية عليك ان تصبح امبرياليا . » (!)

وبهجة الاوروبيين لتعزيز سيطرتهم في افريقيا برزت الامبريالية كنظام دولي. واصبح الاثرياء الانكليز اكثر ثراء ، من استثماراتهم في المناجم ، وفيما بعد ، في الصناعات ، في افريقيا الجنوبية ، اما المستعمرون الافقر فقد سعوا لتقليدهم . لقد كانوا الامبرياليين الصغار . وليس تضخيما القول بان المسوطن الابيض طالما نظر الى نفسه كراسمالي ، يملك مزرعته الخاصة اذا امكن ويطالب بمستوى معيشة مساوي وبمركز اجتماعي مساوي كحق طبيعي له هناك ، كممثل للحضارة الراسمالية في القارة المتخلفة التي اخضعها ، مغلفا دوافعه الاستعمارية اللااخلاقية بحجة « عبء الرجل الابيض » في نقل الحضارة الى الرجل الاسود « المتوحش » وتمدينه . فقد حمل اليه الانجيل لينتزع منه الارض ...

وملازمة العنصرية للاستعمار بالضرورة ، تقوم على اساس حاجة المستعمر الى اخضاع شعب البلاد الاصيل ليستطيع الحفاظ على سرقته وليستطيع انجاح مشروعه الاستعماري وتامين ازدهاره . كان عليه انشاء نظام السيد والمسود لتحويل الشعب الافريقي الى مجرد مخزون لا ينضب من الايدي العاملة الرخيصة، خاصة من بعد اكتشاف الثروات الطبيعية في افريقيا الجنوبية ، الذي ادى الى المزيد من التغلغل الراسمالي الاوروبي في تلك المنطقة .

ولتحقيق هذا الشرط الاساسي او العمود الفقري لنجاح هذا المشروع الاستعماري ، عمد الغزاة البيض الى التدمير المنتظم لحضارة الافريقيين . فقد دمرت مجتمعاتهم بقوة عسكرية متفوقة ، وجرى تقسيم ارضهم المشاع الى قطع يتملكها الافراد ـ البيض بالطبع ، وقد اعطي الافريقيون جزءا فقط من الارض الاقل خصوبة ـ ومن ثم انطلق الغزاة الى تدمير ثقافتهم وسحق كرامتهم .

وفي الوقت الذي كانت تتجه فيه قوافل العمال الافريقيين جنوبا كان المستوطنون البيض يواصلون التغلغل شمالا بحثا عن الذهب والاراضي والعمال، فالاسواق فيما بعد . وكان سيسيل رودس اول من قاد حملة التوسع بتنظيم فرقة للغزو استولت على زيمبابوي من اجل شركته « الشركة البريطانية لجنوب افريقيا » ، واطلق على الارض تلك اسم روديسيا ، تيمنا بنفسه (!)

ومع الوقت انشأ المستوطنون دولة منفصلة عن جنوب افريقيا ، ولكنها خاضعة لبريطانيا . وحتى يومنا هذا تواصل الاقلية البيضاء في زيمبابوي (روديسيا) هذه السيطرة في اطار دولة عنصرية بفضل الدعم الذي تلقاه من القوى الامبريالية لكونها تمثل مصالح هذه القوى .

اما جمهورية جنوب افريقيا العنصرية التي انشئت رسميا في سنة ١٩٦١، فقد انبثقت عن « اتحاد جنوب افريقيا » الذي تشكل في ايار ١٩١٠ بقرار من البرلمان البريطاني بعد مرور ٨ سنوات على هزيمة البويرز (المستوطنون الهولنديون الاصل) في الحرب ضد الانكليز (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) . وكان هؤلاء قد غزوا افريقيا الجنوبية منذ سنة ١٨٣١ سعيا للسيطرة على الطرق البحرية التجارية الى الهند والشرق ، ومن ثم قرروا الاستيطان فيها من بعد اكتشاف الذهب في سنة ١٨٨٦ ولكن التمييز العنصري الخاص في جنوب افريقيا المعروف بنظام «الابارتايد» ، تأسس نظاما منذ سنة ١٩٤٨ عندما نجح « الافريكانرز » (المستوطنون الهولنديون) في الوصول الى السلطة في جنوب افريقيا .

وتضم هذه الجمهورية التي يحكمها العنصريون البيض في الجزء الجنوبي من القارة ، المستعمرات السابقة التالية : رأس الرجاء الصالح ، الناتال ، الترانسفال واورانج فري ستايت . وتنتج ارضها الخصبة بصورة رئيسية : القمح والذرة والقطن والصوف ، التبغ والحمضيات وقصب السكر والالبان والاجبان . اما الثروات المعدنية الرئيسية في باطن ارضها ، فهي الذهب والماس والبلاتين والكروم والانتيمون والمانغنيز والفحم والحديد والاسبستوس واليورانيوم وغيرها ...

ان ثروة التربة الخصبة والثروة في باطن ارض افريقيا الجنوبية تكفي لتفسر طبيعة الحلف المعقود بين الاقلية البيضاء المستغلة المسيطرة وبين الاحتكارات الاجنبية التي تمارس الاستغلال الجشع للموارد الطبيعية والبشرية في هذه الاقاليم المستعمرة .

● الارض والسكان :

وفي زيمبابوي (روديسيا) فان الاقلية البيضاء التي لا يزيد عددها عن ربع مليون نسمة ، تحكم سكان البلاد الاصليين البالغ عددهم ٦ ملايين افريقي . اما في جنوب افريقيا ، فان الاقلية البيضاء الحاكمة تشكل ١٨ بالمائة فقط من عدد سكان البلاد . وهذا التفوق العددي الكبير بين المستوطنين البيض مغتصبي الارض، وبين اصحاب الوطن الاصليين ، كان دائما مصدر قلق للعنصريين البيض . والقلق في روديسيا اكبر مما هو في جنوب افريقيا بسبب قلة البيض والنمو السكاني السريع في اوساط الافريقيين . ولهذا فان الجهود لتشجيع هجرة الاوروبيين البيض الى روديسيا هي من المهمات الرئيسية لنظام الحكم العنصري في سالزبوري . وهم يحققون درجة من النجاح لا باس بها في هذا المجال لما في الهجرة اليها من اغراءات بالنسبة للرجل الاوروبي العادي . ويكفي انه سينتمي الى الطبقة الحاكمة هناك فور وصوله للاستيطان . وكامبرياليين صغار ، فان للروديسيين البيض كل الموازين التي تخدم مصالحهم . فالنظام نظامهم . وهم يملكون القوة العسكرية للمحافظة على هذا النظام ـ على موقعهم المفوق القائم على الامتيازات والتمييز العنصري .

وفي هذا المجال فان ملكية الارض هي المفتاح الاقتصادي والاجتماعي لهذا النظام . انها الملكية الرئيسية التي تقوم عليها ثروة المستوطنون . والسيطرة على الارض هي وسيلة هؤلاء في